

العرب في القرآن الكريم



حق على كل من يدين بالإسلام ويهتدي بهدي القرآن ان يعتني بتاريخ العرب ومدينتهم وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام، ذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام، ولعناية القرآن بهم لاختيارهم لهم لتبليغ دين الإسلام وما فيه من آداب وحكم وفصائل إلى أمم الأرض. فأما أنهم قد ارتبط تاريخهم بالإسلام فلان العرب هيئوا تاريخياً لأجل أن ينهضوا بأعباء هذه الرسالة الإسلامية العالمية، ولأنهم الحكمة العدل الذي يضع الأشياء في مواضعها بحكمة، ويأمرنا أن ننزل الناس منازلهم في شريعته، ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة، إذ لا ينهض بالجليل من الأعمال الا الجليل من الأُمم والرجال، ولا يقوم بالعظائم إلا العظام من الناس. وأما عناية القرآن بالعرب فلأجل تربيتهم لأنهم هم الذين هيئوا لتبليغ الرسالة فيجب أن يأخذوا حظهم كاملاً من التربية قبل الناس كلهم، ولهذا نجد كثيراً من الآيات القرآنية في مراميها البعيدة اصلاً لحال العرب وتطهيراً لمجتمعهم واثارة لمعاني العزة والشرف في نفوسهم. ومن هذا الباب الآيات التي يذكر بها العرب ان هذا القرآن أنزل بلسانهم مثل: (إِنْزِيلًا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) (الزخرف/ 3)، (إِنْزِيلًا نَزَّلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (يوسف/ 2). والذين يعقلون القرآن قبل الناس كلهم هم العرب. ومن أوّل القصد إلى العرب العناية بلسانهم دون جميع الألسنة، جلباً لهم حتى يعلموا أنّه أنزل لهم وفيهم قبل الناس كلهم. ان العرب قوم يعتزون بقوميتهم. وهم قوم ذوو عزة واءاء خصوصاً في الجاهلية. فكان من حكمة القرآن أن

يجلب نافرهم ويقرّب بعيدهم بأن هذا القرآن أنزل بلسانهم. ومن هذا الباب توسعة الـ في قراءة القرآن على سبعة أحرف، وهي اللهجات التي تجتمع على صميم العربية وتختلف في غير ذلك. وسع عليهم في ذلك لتشعر كل قبيلة أنّ هذا القرآن قرآنها، لأنّ اللسان الذي نزل به لسانها. وهذا هو ما يقصده القرآن. ومن هذا الباب أيضاً اشعارهم بأن صاحب الرسالة منهم (لَقَدْ دُجِّعَ كُفْرُكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ) (التوبة / 128). فمن الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع للأجنبي في شيء، لا في لغتها ولا في شيء من مقوماتها. ولذلك نرى القرآن يذكرها بالشرف، ويحدثها كثيراً عن أمة اليهود التي لا يناديها إلا بيا بني اسرائيل تذكيراً لها بجدها الذي هو مناط فخرها، كل ذلك لأنها أمة تحيا بالشرف والسمو والعلو، ويذكرها بالذكر، وهو في لسانها الشهرة الطائفة والثناء المستفيض. يقول تعالى لنبيّه وهو يعني القرآن: (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ زَهْرَ لَدَٰكِرْ لَّكَ وَلَٰقَوْا مَلَكًا) (الزخرف / 43-44).

والأنبياء لم يبعثوا إلا في مناسب الشرف، ومنابع القوة، ومنابت العزة، ليبنى المجد الطريف من الدين على المجد التليد من أحساب الأمة وأنسابها وشرفها وعزتها وما كان لها من مناقب تلتئم مع أصول الدين. فقله تعالى: (وَإِنَّ زَهْرَ لَدَٰكِرْ لَّكَ وَلَٰقَوْا مَلَكًا) يعني أنه شرف لكم، وقومه هم العرب لا محالة. ويقول بعد ذلك: (وَسَوْفَ تَرْضَوْنَ) ليشعرهم أن عليهم من الواجبات في مقابلة هذا الشرف الذي أعطوه ما ليس على غيرهم، ولا شك أن ثمن المجد غال. وهذا الشرط الذي ذكره الـ وذكر به العرب هو شرط واجب الاعتبار والتنفيذ، لأنّ الأُمّة التي لا تؤدي ثمن المجد لا تحافظ عليه. ثمّ هي أمة لا يعتمد عليها في النهوض بنفسها ولا بغيرها. وانما ذكرهم الـ بذلك لينهضوا بالأُمم على ذلك الأساس بالعدل والرحمة والتكريم. وما ذكر القرآن العرب بتكريم بني آدم وخلقهم في أحسن تقويم إلا ليعاملوهم على هذه القاعدة التي وضعها الخالق. وان أعداء البشرية اليوم وقبل اليوم يعمدون إلى قتل الشرف من النفوس، ليستذلوا من هذا النوع ما أعز الـ، ويهينوا منه ما كرم الـ. والخلاصة أن عناية القرآن بأحياء الشرف في نفوس العرب ضرورية لاعداهم لما هيئوا له من سياسة البشر. وبهذا نستعين على فهم السر والحكمة في اختيار الـ للعرب للنهوض بهذه الرسالة الإسلامية العالمية، واصطفائه إياهم لانقاذ العالم مما كان فيه من شر وباطل. وهذا السر هو أنهم ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها هو الذي هياهم لذلك، ولو كانوا أذلاء لما تهيبوا لذلك العمل العظيم. وانظروا واعتبروا ذلك بحال أمة هي أقرب أمة إلى العرب وهي أمة اسرائيل فإنها لم تكن مهياًة لانقاذ غيرها، وانما هيئت لانقاذ نفسها فقط لان مقوماتها النفسية لم تصل بها إلى تلك الدرجة العليا. ولذلك عانى موسى معها ما عانى، مما قصة القرآن، علينا لنعتبر به في الحكم على الأمم. ولا حاجة إلى

التطويل في الحديث عن بني إسرائيل فإنّ القرآن قد فصل لنا شؤونهم تفصيلاً، وانما نبههم على هذا الفارق الجوهرى بين الامتين. وقد تقولون: ان بني إسرائيل اختارهم الله فضلهم على العالمين. والجواب الذى يشهد له الواقع انّهم اختارهم لينقذوا أنفسهم من استعباد فرعون، وليكونوا مطهراً للنبوّة والدين في أوّل أطوارهما وأضيق ادوارهما وهذا هو الواقع. فإنّ الأُمّة العربية استطاعت ان تنهض بالعالم كله وان تظهر دين الله على الدين كله. وأما بنو إسرائيل فإنهم ما استطاعوا أن ينهضوا حتى بأنفسهم وانما نهض بهم موسى نهضة قائمة على الخوارق. وما نهضوا بأنفسهم الا بعد موسى بزمن، مع اتصال حبل النبوة فيهم، ومغادرة الوحي الإلهي ومراوحته لهم. فالامتان، العربية، والاسرائيلية، متمايزتان بحديث القرآن عنهما. وإذا تلمسنا الحكمة المقصودة من اختيار الله لبني إسرائيل، مع أنهم غير مستعدين للقيام بنهضة عالمية عامة، وجدنا تلك الحكمة في القرآن مجلوبة في أبلغ بيان في قوله تعالى: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمْ مِمَّنْ هُمْ أَكْثَرُ مُنَادٍ) (القصاص/ 5-6). فالسر المتجلي من هذه الآية هو أنّ الله أراد بما صنع لبني إسرائيل، وبما قال لهم، أن يعلم هذا العالم الإنساني من سنن الله في كونه ما لم يكن يعلم، وهو اخراج الضد من الضد وخراج الحي من الميت وانقاذ الأمة الضعيفة التي لا تملك شيئاً من وسائل القوة الروحية ولا من وسائل القوة المادية، من العباد الأقوياء المتأهلين. والتمكين لهم في الأرض، وإرادة الأقوياء المستعلين في الأرض عاقبة باطلهم لكيلا ييأس المستضعفون في الأرض من روح الله. وقد قال موسى لبني إسرائيل تمكيننا لهذا المعنى في نفوسهم: (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهَوِّلَ لَكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (الأعراف/ 129). وإلى هذا المثل العملي تشير الآية: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَعْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (البقرة/ 243). وأما العرب فإنهم اختيروا لوظيفة عالمية عامة لما فيهم من شرف متأصل واستعداد كامل، وصفات مهياة، ولهذا كان منبع الرسالة بمكة، وشأنها عند العرب هو شأنها فهم مجمعون على تخليصها، ولأنّها في وسط الجزيرة وصميمها، ووسط الجزيرة بعيد كل البعد عن المؤثرات الخارجية في الطباع والألسنة، تلك المؤثرات التي يجلبها الاحتكاك بالأجانب والاختلاط بهم. وكل أطراف الجزيرة لم تخل من لوثة في الطباع وعجمة في الألسنة جاءت من الاختلاط الأجنبي. ولا أضّر على مقومات الأُمم من العروق الدساسة: فاليمن

دخلتها الدخائل الأجنبية من الحبشة والفرس على طباع أهلها وألسنتهم، والشام ومشارفه كانت مشرفة على الاستعجام. فكانت هذه الأطراف تنطوي على عروبة مزعزة المقومات، ولم يحافظ على الطبع العربي الصميم الا صميم الجزيرة، ومنه مكة التي ظهر فيها الإسلام. وهذا الوسط وان كان عريقا في الصفات التي تمس العصر لأجلها جاهليا، ولكنه بعيد عن الذل الذي يقتل العزة والشرف من النفوس. والجاهل يمكن أن تعلمه والجافي يمكن أن تهذبه، ولكن الذليل الذي نشأ على الذل يعسر أو يتعذر أن تغرس في نفسه الذليلة المهينة عزة واءاء وشهامة تلحقه بالرجال. هذا توجيه موجز مقرب لاختيار □□ تعالى العرب للنهوض بالرسالة العامة. وشيء آخر يرتبط بهذا وهو أن □□ كما اختار العرب للنهوض بالعالم كذلك اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة وترجمان هذه النهضة، ولا عجب في هذا فاللسان الذي اتسع للوحي الإلهي لا يضيق أبدا بهذه النهضة العالمية مهما اتسعت آفاقها وزخرت علومها.